التكافل الاجتماعي أنواعه وأسسه التربوية في القرآن الكريم

د بتبغور عبد القادر/جامعة: وهران01

****

المولج[*]:

إن التكافل مفهوم اجتماعي روحي يرتبط بمقاصد الدين، ويلتصق بأهدافه وغاياته السامية؛ ولذلك اعتنى به الإسلام الحنيف عناية بالغة، بل جعله جزءاً أصيلاً من قوام المجتمع المسلم وأساس قوته المادية والروحية، لأنه يهدف إلى غايات كريمة، تنتهي إلى تحقيق الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية لجميع أبناء المجتمع.

ولهذا يصعب تعريف المجتمع الإسلامي استناداً إلى هويته الإسلامية إذا انعدمت فيه رابطة التكافل الاجتماعي، وهناك الكثير من النصوص الشريفة التي أشارت لهذا المعنى، مثل قوله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)[1] وقوله أيضا: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [2].

ولا يحصل هذا التضامن الشامل بين أبناء المجتمع وتساندهم، سواء كانوا أفرادًا أو جماعات أو حكامًا أو مَحكومين إلا عن طريق التعاون بكافة صوره، من مواساة

[*] - Abstract :Summarized of the article named: Educational foundations and the types of social solidarity in the Saint Koran by Docteur: Bettebghor Abdelkader The .solidarity is a social and spiritual concept that is linked to the objectives of the Islamic Religion, and it is for this reason that Islam gave him a great importance. There are three type of solidarity in Islam: The first is the economic solidarity, the Coran in its verses order the Muslims to well spend their money and to help the poor with this money as well as orphans. The second type is the moral solidarity, which include all the good attitudes toward the other, to ensure that the members of the community is united and are characterized good morals. For the third type is the scientific solidarity which requires to scholars in all areas to educate the ignorant to disseminate science and culture in the whole community On the other hand, social solidarity is based on three educational foundations, the first is the belief in Islamic religion which encourages the Muslims to do well and prohibit the evil and created a competition of Good Acts in learned that all will satisfy the good God The second foundation is the brotherhood between the Muslims who joined their hearts and make helpful and altruism between them. The third foundation it is the modesty that pushes the Muslim to characterized of morality and purify their Ames of evil

كلمات مفتاحية: القرآن؛ الإسلام؛ التكافل؛ الاجتماعي؛ الأسس؛ التربوية.

[1] - سورة المائدة: الآية 02.

[2] - سورة التوبة: الآية 71.

بالمال أو بالخدمات الاجتماعية المختلفة، حسية كانت أو قيمية حتى ينشأ أبناء المجتمع إنشاء خاصًّا عقليًّا وجسميًا وسلوكيًّا؛ وعلى قدر هذا الإنشاء تصبح لبنات المجتمع قوية متماسكة، تصمد أمام الطوارئ والأزمات والأفكار الهدامة الذي قد تظهر في المجتمع.

ومن خلال المبحثين الآتيين سأوضح هذا التنوع الحاصل في التكافل الاجتماعي في الإسلام، والأسس التي يرتكز عليها:

أولا: أنواع التكافل الاجتماعي

يقصد بالتكافل الاجتماعي أن يكون آحاد المجتمع في كفالة جماعتهم، وأن يكون كل قادر أو ذي سلطان كفيلا في مجتمعه يمده بالخير، وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الآحاد ودفع الأضرار عن البناء الاجتماعي وإقامته على أسس سليمة [1].

وما يقتضيه هذا المعنى الخاص للتكافل أن يتضامن أبناء المجتمع ويتساندوا فيما بينهم على اتخاذ أشكال مختلفة من التعاون والتضامن، لإيجاد المجتمع الصالح، ودفع الضرر عن أفراده بدافع من شعور إيماني وأخوي عميق ينبع من أصل العقيدة الإسلامية، ليعيش بعضهم في كفالة بعض؛ وهذا يعني أن التكافل الحاصل بين الناس في الإسلام شامل لأنواع مختلفة من التعاون والتراحم فيما بين أفراد المجتمع، فهو تكافل متكامل ولازم.

ويمكن تفصيل ذلك في المطالب الآتية:

1- التكافل الاقتصادي

اهتم الإسلام بالجانب الاقتصادي اهتمامًا بالغًا لاسيما الجانب المالي منه، لأنه عصب الحياة؛ فلو فقد المال ما حيي الإنسان، وما قام كيانه، منه يستمد قوته وعافيته، فهو سر نشاطه وتمكنه وديمومته على هذه الأرض. وبهذا الاعتبار كان المال وسيلة أساسية وضرورة للمحافظة على المجتمع الإنساني، ولذلك أمر القرآن بتوجيه الثروة فيما يخدم مصلحة المسلمين، دون أن ينسى حق الفرد فيهم؛ على أن لا يطغى بمال أو يستبد به عنهم، أو ينفقه في غير صالحهم، أو يتصرف فيه من لا

[1] - انظر التكافل الاجتماعي في الإسلام لأبي زهرة: ص7.

يحسن استعماله وإدارته، ولذلك نهى السفهاء عن تناوله أو التصرف فيه، قال تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) [1].

كما حث تعالى المسلمين على أن يكونوا وسطًا في الإنفاق بين الإسراف والتقتير؛ مخاطبا إياهم بقوله:(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا[2])، وقوله أيضا: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)[3]؛ كما حذرهم من عدم التعاطي مع المال إيجابيا وفي صالح المسلمين بكنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[4]، وحذرهم من البخل وأن يضيقوا على الناس معاشهم وأرزاقهم في قوله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[5]. كل ذلك من أجل ألا يبقى المال بين أيدي فئة خاصة من الناس يتداولونه فيما بينهم، وقد حذر تعالى من هذا الأمر بقوله:(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ).[6]

ولذلك رتب حقوقا على الأغنياء في المال تتمثل في الزكاة، وندب إلى أداء حقوق أخرى من رعاية المحتاجين، وتفقُّد للمعوزين، والإحسان إليهم، مثل القرض والإنفاق في سبيل الله، وكفالة اليتيم، وصلة الأرحام... إلخ، قال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) [7]، وقال أيضا:(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ) [8].

كل هذه الأنواع مِن التكافل وغيرها تتكامل جميعها لتُقدِّم نسيجًا من التعاون المادي في الحياة الاجتماعية، من أجل الإسهام الفعلي في إقامة المصالح العامة، حتى يسلم

[1] - سورة النساء الآية 05.
[2] -سورة الفرقان: الآية 67.
[3] - سورة الإسراء: الآية 29.
[4] - سورة التوبة: رقم: 34
[5] - سورة آل عمران: الآية 180.
[6] - سورة الحشر: الآية 07.
[7] - سورة الحديد: الآية 11.
[8] - سورة البقرة: الآية 177.

المجتمع المسلم من البطالة والفقر والعوز، وينعم ويسعد ويطمئن أفراده ويخدم بعضهم بعضًا؛ لأن المؤمنين إخوة في الإسلام قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[1]، فيجب عليهم بناء على هذه الأخوة الإيمانية إيجابا دينيا أن يتعاونوا ويتضامنوا ويتكاملوا فيما بينهم، وأن يعين بعضهم بعضا على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس أفرادا وأقواما في دينهم ودنياهم.

ولم يقتصر القرآن على التضامن البيني أي بين المسلمين بل فتح الباب واسعا، ورحب بأن نتشارك مع غيرنا في هذا التعاون والتكافل، قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) [2]، لاسيما المعاهدين لنا والمسالمين أو الذين بيننا وبينهم صلحا وسلما، كيف لا وقد قال تعالى في مثل هؤلاء: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [3].

2- التكافل الأدبي:

والتكافل المادي أو المعيشي ليس هو كل ما طلبه الإسلام في هذا المجال، بل هناك أنواع أخرى من التكافل رغب فيها القرآن وحث عليها، ويقع في مقدمتها التكافل الأدبي من نصيحة وإرشاد وتربية ودعوة إلى الله؛ باعتبار أن التكافل الاجتماعي في الإسلام بما اشتمل عليه من عقيدة وأحكام وآداب نظام متكامل يهدف بالدرجة الأولى إلى تزكية الإنسان، وترسيخ القيم والمثل العليا في المجتمع، ويوجه أفراده لتحقيق ذلك في أنفسهم،كالتواصي بالحق والصبر وحسن المعاملة والصدق والوفاء والأمانة، وكف الأذى عن الناس وغيرها من القيم، باعتبار أن ذلك خصيصة أساسية من خصائص هذه الأمة، وبدونها تفقد عزتها وكرامتها وكينونتها، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)[4].

ذلك أن الشريعة الإسلامية حين وضعت تشريعاتها ومبادئها المختلفة من أدبية وسياسية واقتصادية منظمة لعلائق الناس بعضهم مع بعض راعت فيها مكارم

[1] - سورة الحجرات: الآية 10.
[2] - سورة المائدة: الآية 02.
[3] - سورة الممتحنة: الآية 08.
[4] - سورة آل عمران: الآية 10.

الأخلاق[1]؛ فلو فرضنا مجتمعا ترك فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف يمكننا أن نتصور هذا المجتمع وقد فقد أعز صفة وجوده، وبقاء كيانه واستقراره؟ باعتبار أن فقدان ذلك يعني انتشار كل رذيلة؛ وهب أن مجتمعا غابت عنه فضيلة الأمانة، وشاعت فيه الخيانة والخداع، فكيف يصبح حاله؟ وكيف يمكن أن يستقر نظامه في ظل هذه الرذائل والآفات؟ وكيف يمكن أن تؤدى الحقوق إلى أهلها وذويها في مجتمع لم يأمن بعضه بعضا؛ ومن ثم فالجماعة كلها تكون آثمة إذا رأت الشر قائما وسكتت عنه، ولا أحد ينكره. لأن الشر المعلن هو الذي يغري الناس ويدعو إليه.

وبسبب ترك ذلك لعن القرآن الكريم بني إسرائيل، لأنهم أفسدوا مجتمعهم بترك الآثمين يرتعون في إثمهم من غير أن ينهوهم، قال تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)[2]، فاعتبروا جميعا عصاة لأنهم لم ينهوا عن الفساد.[3] وقوله أيضا:(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[4]، "فسمى الله جل وعلا عدم نهى الربانيين والأحبار لهم صنعاً والصنع أرخص مطلقاً من الفعل، فدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فعل بدليل تسمية الله له صنعاً"[5] .

وبناء على هذه الحقيقة جعل كثير من الفقهاء وخاصة المالكية ترك المنكرات وعدم الأخذ بيد أصحابها كالفعل، أي وكأنه قد فعلها هؤلاء الساكتون[6]؛ وأشار إلى هذا صاحب مراقي السعود بقوله:

ولا يكلف بغير الفعل باعث الأنبيا ورب الفضل

فكفنا بالنهى مطلوب النبي والكف فعل في صحيح المذهب[7].

---

[1] - انظر: الأخلاق الإسلامة وأسسها لعبد الرحمان حسن الميداني: ج629/1.

[2] - سورة المائدة: الآيتان: 78-79.

[3] -انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام لأبي زهرة: ص 8. وانظر: مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للعلامة ابن قدامة للشنقيطي: ص46.

[4] -سورة المائدة: الآية 63.

[5] - مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للعلامة ابن قدامة للشنقيطي: ص46.

[6] - اختلف المالكية في الترك هل هو فعل أو لا؟ والصحيح كما قاله المقري أن الكف فعل. انظر: الذخيرة للقرافي: 179/4-181. وانظر: القواعد للمقري: ج3/ القاعدة 446. وانظر: إ يضاح المسالك للونشريسي: ص 205. وهو المشهور في المذهب الحنفي. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: 11/ 203.

[7] - مذكرة أصول الفقه للشنقيطي: 47/1.

ولذلك لم ينف تعالى الخسران عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات حتى يتبعوا أعمالهم هذه بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، رغم أن ذلك من عمل الصالحات، لأنه قد يغفل عنه أو «يظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره ودعوته إلى الحق.»[1] .

ذلك لأن الإسلام يعتبر المجتمع المسلم مسئولا عن صيانة الأخلاق العامة، ففيها الحفظ له من الفوضى والفساد والانحلال، والتخلي عن ذلك يؤدي إلى إفساد الجماعة وتفرقها وتنابذها[2]، ومن ثم اختلال البناء الاجتماعي.

3- التكافل العلمي:

يحتل العلم منزلة رفيعة في الإسلام، وقد بين القرآن مكانة أهله، وأعلى منزلتهم ورفع ذكرهم بقوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [3]، وقال أيضا: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [4]، ففي الآية مدح لأهل العلم، وخاصة العلم بكتاب الله المنزل. وقد أمر الله من لا يعلم بالرجوع إليهم وسؤالهم، قال تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [5]، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم وغيرهم بحقائقه ومعانيه[6]، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [7]؛ قال الزجاج: «الذكر عام فيمن يعزى إليه علم.»[8]، وأهله هم أهل الاختصاص في كل فن؛ وعلى هذا، فالواجب على من لم يعلم أن يسأل من يعلم، كما أمر الله تعالى، وبذلك يخرج الجاهل من التبعة.

وفي مقابل ذلك يتوعَّد الله العلماء الكاتمين للعلم، بعدم بذله لطالبيه بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ

---

[1] -التحرير والتنوير لابن عاشور: 468/30

[2] - انظر: التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية لمحمد بن أحمد الصالح: ص47.

[3] - سورة الزمر: الآية 09.

[4] - سورة المجادلة: الآية 11

[5] - سورة النحل: الآية 43.

[6] - انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: 441/1.

[7] - سورة النحل: الآية 44.

[8] - البحر المحيط لابن حيان: 533/6،وانظر: الحاوي في تفسير القرآن للقاش: 436/19.

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [1]؛ قال أبو هريرة في هذه الآية: « وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبدا، ثم تلا: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [2]،[3]؛ فالآية وإن نزلت في أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد (ص)، كما أشار إلى ذلك القرطبي[4]، إلا أن حكمها عام في كل من كتم علما من دين الله احتيج إلى بثه، فيشمل الذين يعلمون رسالة محمد (ص) ولا يبلغونها للناس[5]، فإنه كما قال على كرم الله وجهه: «لا يسأل الجهلاء لما لم يتعلموا، حتى يسأل العلماء لما لم يعلموا»[6].

ولقد أكد تعالى ذلك في مواضع كثيرة من القرآن وبأساليب مختلفة منها أمره لرسوله (ص) بالصدع، وتبليغ ما وكل به، قال سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [7]، وقال أيضا: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [8]؛ قال ابن عباس: «المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئا منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي (ص)، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته»[9]، بل لا يكتموا شيئا من العلم الذي فرض الله تعالى بيانه للناس[10]، سواء كان دنيويا أو أخرويا لأنه كله منه تعالى، وفيه صلاح للمجتمع الإنساني أفرادا وجماعات .

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرَّد المساعدات المادية - أيًّا كانت صورتها -، بل كل يجود بما عنده لأخيه، فالعالم بعلمه بإرشاد الضال، والشجاع القوى بدفاعه عن الضعيف ومنع الظالم من ظلمه، والغني

---

[1] - سورة البقرة: الآية 159

[2] - سورة البقرة: الآية 159

[3] - أخرجه أحمد ابن حنبل في مسنده: 274/2، مسند: مسند أبي هريرة، رقم: 228

[4] - انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 184/2.

[5] -انظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة: 479/1.

[6] -المرجع نفسه: 480/1.

[7] - سورة الحجر: الآية 94.

[8] -سورة المائدة: الآية 67.

[9] -الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 242/6.

[10]- انظر: جامع البيان في تفسير القرآن للطبري: 731/2.

بسخائه على الفقير والمسكين، فهو إذن يمتد ليشمل تربية روح الفرد وعقله وضميره وشخصيَّته وسلوكه الاجتماعي.[1]

ثانيا: أسس إقامة التكافل الاجتماعي في القرآن الكريم

إن فكرة التكافل لم تنشأ من فراغ ولم تنبت بلا جذور، وإنّما مهدت لها وأسهمت في فاعليتها وديمومتها مجموعة من الأسس والمبادئ العامة، كانت بمثابة البنى التحية التي عملت على بلورة التكافل وإرساء قواعده. وقد تجلت لي في ثلاثة أسس يمكن توضحيها من خلال المطالب الآتية:

1- العقيدة أساس التكافل الاجتماعي:

إن العقيدة الإسلامية مصدر حياة المسلم وتفاعله مع غيره، من حيث أنها تحفزه وتنمي فيه حب الخير والتعاون والتعلق بالقيم العليا للمجتمع، باعتبار أنها الدافع والمحرك لفعل الخيرات وترك المنكرات، والسعي في مصالح الناس؛ فالمسلم إذا علم مثلا بأن الله الباسط الرازق الكريم القادر، واطمأن إلى معاني هذه الصفات، ثم سعى إلى تمثيلها، والاقتداء بها انعكس ذلك على حياته وواقعه، وانغرست فيه خصال الاستقامة والصلاح ويقظة الضمير ووضوح الهدف والرضى بما قسم الله وقدر، فيتحرر بذلك من الأنانية والشح والعبودية للمادة والشهوات والعنصريات الباطلة؛ فيشعر بمسؤوليته ودوره الاجتماعي في الرخاء والشدة؛ ومن ثم ينطلق مسترشدا بأوامر وتوجيهات هذا الإيمان، فيلتزم الخير ويجتنب الشر، ويؤثر في الناس بالخير، ويتأثر بهم في الخير. ومن لوازم ذلك أمور ثلاثة:

الأمر الأول: العمل الصالح جزء لا يتجزأ من الإيمان

تغدو الأعمال الصالحة مادية كانت أو معنوية بناء على ما سبق جزء لا يتجزأ من الإيمان؛ إذ القرآن دائما يقرنهما ويربط بينهما، بحيث لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر، فكلما يذكر الإيمان وإلا ويتبعه بالعمل الصالح فهو ثمرته ومحوره، قال تعالى: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) [2]،وقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[3]،

[1] - الإسلام عقيدة وشريعة لمحمود شلتوت: ص 436.

[2] - سورة التوبة: الآية 71.

[3] - سورة الأحقاف: الآية 13.

وقال أيضا: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) [1]، وغير ذلك من الآيات التي وردت في مواطن مختلفة من القرآن .

وليس الإيمان بناء على هذا مجرد علاقة بين الفرد وربه كما يعتقد البعض، بعيداً عن توجيه أعماله وحركاته وعلاقاته مع أفراد مجتمعه، بل الإيمان ينبغي أن يكون مصدر ومنطلق جميع أعمال وحركات المسلم، يقول تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [2].

ومن ثم فالإيمان هو ربط الفكر بالفعل، والنية بالحركة والسلوك القويم، وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [3]؛ أي لا ينبغي أن يكون الاشتغال بالتوجه إلى القبلة قصارى همة المؤمنين[4]، ولكن مقتضيات التوحيد من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإتيان المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين إلخ أكبر من ذلك وأعظم، لأنها من أهم مقاصد الشريعة، وفيها جماع صلاح النفس والجماعة.

فالمسلم حينما يفعل هذه الأعمال الصالحة، ودافعه لذلك إيمانه واعتقاده لا شك أنه يأتيها مرتاح البال مطمئن الفؤاد، لأنه يتعاطى ذلك ابتغاء حبّ الله عزّ وجلّ، لا لغرض آخر[5].

الأمر الثاني: التفاني في خدمة المجتمع والمسارعة إلى فعل الخيرات.

[1] - سورة البينة: الآية 03.

[2] - سورة الأنعام: الآية 162.

[3] - سورة البقرة: الآية 177.

[4] - ولذلك أسقطه الله عن الناس في حال العجز والنسيان وصلوات النوافل على الدابة في السفر.

[5] - انظر: فتح القدير للشوكاني: 198/1.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن إن الإيمان يربي في المسلمين روح التراحم والتضامن، ويوقظ فيهم الضمير الاجتماعي الذي يجعلهم مندمجين في الجماعات التي يعيشون فيها، بل ويسارعون في خدمتها ويتسابقون إلى ذلك بقوة روحية تحكم ميولهم وإراداتهم، وتوجه عقولهم نحو الخير والصلاح، قال تعالى عنهم: (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) [1]، أي يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، وهم سابقون الناس لأجلها، وكأن كل واحد منهم يسرع ليصل قبل غيره[2]؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) [3]، وقوله: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) [4]، وقوله :(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [5].

كل ذلك يفعلونه من أجل مغفرة الله وعفوه، وتحقيقا لمرضاته، كيف لا وهو القائل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[6]، ففلاح المؤمنين في الدنيا والآخرة كما أشارت الآية مبني على عبادة الله الممزوجة بفعل الخيرات والتنافس فيها، فيصبحان بذلك عاصمين لهم من التيه والضلال، دافعين إياهم إلى الرقي والتقدم ونفع الجميع[7].

هذا وإن التكافل الاجتماعي المنبعث من النفس المؤمنة بالله أجدى على المجتمع من تكافل بقوة القانون، لأن ما يبنى على القانون قد يوجد في النفس ما يبرر مخالفته، أما ما يعتمد على الضمير الديني، فإن المؤمن بطبعه على أنه أمر من الله الذي يعلم السر وأخفى، فيلتزمه من تلقاء نفسه بدافع وجداني صادق [8].

الأمر الثالث: الإخلاص في العمل لله وحده.

إن المسلم حينما يعلم أن الأعمال التي يقوم بها كصلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك لا يقبلها الله منه ولا ينال ثوابها إلا إذا صدرت بصدق وإخلاص، فإنه ينطلق يتعامل ويتعاون مع غيره لا يبتغي إلا وجه

---

[1] - سورة المؤمنون: الآية 61.

[2] - انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري: 192/3. والمحرر الوجيز لابن عطية: 507/1. وفتح القدير للشوكاني: 578/3.

[3] - سورة البقرة: الآية 148.

[4] - سورة الحديد: الآية 21.

[5] - سورة المطففين: الآية 26.

[6] - سورة الحج: الآية 77.

[7] -وانظر: أضواء على النظام الاجتماعي في الإسلام لعبد السلام: ص89.

[8] -انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام لأبي زهرة: ص13-14.

الله، ولا يعنيه إلا مرضاته[1]، قال تعالى في ذلك: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [2]، وقال سبحانه: (وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) [3]، وقال أيضا: (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) [4]، وقال على لسان المؤمنين المخلصين في إعالتهم لغيرهم: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) [5].

ولذلك أمر الله تعالى بالتعاون على البر مقترنا بالتقوى، قال سبحانه:(تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) [6]، فالبر هو الطاعة الظاهرة ونفع الناس، وإسداء المعروف لهم، والتقوى: تصفية النفس وتطهيرها، وإخلاصها لله تعالى[7]، يقول في ذلك أبو الحسن الماوردى: «ندب الله تعالى إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفى البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته، وعمت نعمته »[8].

2- الأخوة أساس التكافل

كان العرب في الجاهلية على شفا حفرة من نار الخلاف والاختلاف والتمزق والتقاتل، وكان الواحد منهم منكفئاً على ذاته، ومتقوقعاً داخل أسوار نفسه، فعمل الإسلام منذ ظهوره على بناء وتدعيم علاقات طيبة بين الناس تقوم على أساس الألفة والأخوّة في العقيدة مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [9].

وهذه النقلة الحضارية يشير إليها القرآن بصورة جلّية في قوله عز من قائل: (اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ

[1] -انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: 1/ 581. وانظر: روح المعاني للألوسي: 8/10.
[2] -سورة البقرة: الآية 265.
[3] -سورة البقرة: الآية 272
[4] - سورة الليل: الآية 18-19-20.
[5] - سورة الإنسان: الآية 09
[6] - سورة المائدة الآية 02.
[7] - زهرة التفاسير لأبي زهرة: 1/ 2025-2026
[8] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 47/6.
[9] - سورة الحجرات: الآية 10.

مِنْهَا)[1]؛ فبينت هذه الآية أن الأخوة الإسلامية قامت على أساس العقيدة والدين والحرمة مقام رابطة الدم والنسب، فأضحت بهذا « أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.»[2]

هذا «وما يمكن أن يجمع القلوب المتنافرة إلا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية والثارات القبلية والأطماع الشخصية والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال»[3]، فتسقط بذلك فوارق النسب واللون والقبيلة.

وأول صورة من صور المؤاخاة التي عقدها الله بين المسلمين هي التأليف بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا وتركوا أوطانهم لأجل إعلاء كلمة الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله (ص) وأصحابه وأعانوهم بديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ وقد جاء ذلك واضحا في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [4].

فقد أحدثت مبادئ الإسلام بهذا العهد الجديد طفرة نوعية في أنماط تفكير وسلوك الغالبية الغالبة من المسلمين، حيث غدا الواحد منهم بفضل هذا الدين إنساناً اجتماعيا يشعر بمعاناة إخوانه المؤمنين، ويمدّ يد العون لهم، فهو يسعى لتحقيق مصالحهم كما يسعى لتحقيق مصالحه، ويشاركهم في مكاره الدهر، بل يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم؛ فصار المجتمع الجاهلي بذلك أمة متحدة. ولعلَّ من أهمِّ روافد الأخوة الإيمانية التي ترتكز عليها ما يلي:

1-رافد التآلف:

ولعل أهم ما تبنى عليه الأخوة الإيمانية التي حصلت بين المؤمنين التآلف بينهم، فيكون الشخص ممن يألف ويؤلف حتى يحصل الحب والسلام والترابط والوحدة في الجماعة المسلمة، ولهذا ألف الله تعالى بين قلوب المؤمنين، قال سبحانه: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ

[1] - سورة آل عمران: الآية 103.

[2]. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 322/16-323.

[3] - في ظلال القرآن لسيد قطب: 443/1.

[4] -سورة الأنفال: الآية 72.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[2]، طالما أنه لا يقوم البناء الاجتماعي إلا إذا كانت كل لبناته متآلفة، يتماسك بعضها مع بعض[3]، فيصير المجتمع كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وقد أشارت الآية إلى هذا المعنى في قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) [4]

ذلك لأن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم وتعاضدهم واتحادهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، ويحصل لهم النصر والقوة والتمكين[5]؛ وأن التنازع والاختلاف وفساد ذات البين يضعف الأقوياء منهم، ويهلك الضعفة والفقراء، ولذلك قال تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) [6].

2-رافد التعاون:

لقد وضعت الفترة الأولى من قدوم النبي (ص) إلى المدينة كلا من المهاجرين والأنصار بعد التآخي بينهم والتآلف بين قلوبهم أمام مسئولية خاصة من التعاون والتراحم والتضامن؛ ذلك أن التآلف بين أفراد المجتمع ينجر عنه التعاون فيما بينهم في فعل الخيرات في شتى أنواعها، «والخير بذل في المال، وبذل في العاطفة، وبذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء.»[7]

وهذا ما حصل فعلا بين المسلمين بعد الهجرة حتى قال المهاجرون: «يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنا، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله.»[8]

وقد وصلت المؤاخاة بينهم إلى درجة أن يتوارث المتآخيان، ثم نسخ هذا التوارث بقول الله عز وجل: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [9]

---

[1] -سورة الأنفال: الآية 63.

[2] - أخرجه أحمد ابن حنبل في مسنده: 400/2 مسند: أبي هريرة: رقم: 9187

[3] -التكافل الاجتماعي في الإسلام لأبي زهرة: ص 9-10.

[4] - سورة الصف: الآية 04.

[5] - انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: 141/1.

[6] - سورة الأنفال: الآية 01.

[7] - في ظلال القرآن لسيد قطب: 6/ 3527

[8] - أخرجه أحمد في مسنده: 200/3، مسند: أنس بن مالك، رقم: 13097

[9] -سورة الأنفال: الآية 75.

ولم يكتف هؤلاء الصحابة بالتعاون المادي فيما بينهم، بل أخذ بعضهم بأيدي بعض في كل ما فيه خير للأمة، من تراحم وتناصح وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لأن ذلك من سمات المؤمنين المفلحين الذين رضي الله عنهم، قال تعالى: (وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[1]؛ فجعل سبحانه التواصي بينهم جزء لا يتجزأ من مواصفات الذين أنعم الله عليهم، وأنهم يتناصحون فيما بينهم بالحق والعدل والصبر، وعلى كل واحد منهم أن يتقبل إرشاد وتوجيه أخيه إذا قصر في حق إخوانه، أو ظلم أو اعتدى وغير ذلك؛ وإلا فلا معنى للتواصي إذا لم يصحبه استجابة هذا لذاك، ويأخذ هؤلاء بيد أولئك فيما فيه الخير والصلاح .

3- رافد الإيثار[2]:

ومن نتيجة هذا التآخي ومقتضياته أيضا المآثرة بين المسلمين؛ فالأخوةلا تقتصر على العدل وحفظ الحقوق الأساسية، بل تعني التجرد من شح النفس والارتقاء إلى الفضل والإحسان، قال جل وعلى: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[3]).

وكان الأنصار على مستوى هذه المسئولية، حيث واسوا إخوانهم المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم بخير الدنيا لما هاجرو إليهم. يحدثنا عبد الرحمن بن عوف عما وصلت إليه هذه المؤاخاة التي لم يعرف الناس مثلها من قبل، فيقول: لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله (ص) بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: «إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت، نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها»، فقال عبد الرحمن ابن عوف: «لا حاجة لي في ذلك هل من سوق فيه تجارة؟». قال سعد: «سوق قينقاع»، فغدا إليه عبد الرحمن ابن عوف. [4]

هذا وقد كان القرآن الكريم شاهدا عليهم حيث أعطى صورة رفيعة عن الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين، فشاركوهم في أموالهم وبيوتهم وآثروهم على أنفسهم، قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

---

[1] - سورة العصر: الآية 01، 02، 03.

[2] -الإيثار: هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 26/18.

[3] - سورة التغابن: الآية 16.

[4] -رواه البخاري في صحيحه: 699/2، كتاب: البيوع، رقم: 1943

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]؛ وروي أن سبب نزول هذه الآية: أن النبي (ص) لما قسم القرى في المهاجرين، قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وتركتم لهم هذه »، فقالوا: «بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة»، فنزلت هذه الآية[2]. وقيل نزلت في أبي طلحة[3]، فعن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله (ص) فقال: «يا رسول الله أصابني الجهد»، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال رسول الله (ص): «ألا رجل يضيف هذه الليلة يرحمه الله؟»، فقام رجل من الأنصار[4]، فقال: «أنا يا رسول الله»، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: «ضيف رسول الله (ص) لا تدخريه شيئا»، قالت: «والله ما عندي إلا قوت الصبية»، قال: «فإذا أراد الصبية العشاء فنومهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة»، ففعلت [5]

وروي عن أبي زيد البسطامي أنه قال: قدم علينا شاب من بلخ حاجاً فقال: «ما حد الزهد عندكم؟» فقلت: «إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا»، فقال:" هكذا عندنا كلاب بلخ»، فقلت له: «فما هو عندكم؟» فقال: «إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا»[6]

وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عم لي في الجرحى، ومعي شيء من ماء، فوجدته، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يصيح: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه، فجئته، فإذا هو هشام بن العاصي، فقلت: اشرب، فإذا آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته، فإذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله[7].

ومن ثم كانت المؤاخاة نعمة من نعم الله التي أنعم الله بها على المؤمنين، ومن أسباب القوة والعزة والثبات والتمكين في الأرض، وإن أحوج ما تكون الأمة إليه اليوم هو العودة إلى التآخي والتراحم والتواصل فيما بينها، لأنه من الصعب بل من المستحيل

---

[1] - سورة الحشر: الآية 09

[2] -انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: 5/ 287.

[3] - انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: 83/28.

[4] - هو أبو طلحة. انظر: صحيح مسلم: 3/ 1624، كتاب: الأشربة، باب: باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم: 2054

[5] - رواه البخاري في صحيحه: 4/ 1854، كتاب: التفسير، باب: سورة الحشر، رقم: 4607

[6] -انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 26/18.

[7] - انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: 287/5

أن تستأنف حياة إسلامية عزيزة قوية، إذا لم يحدث التآخي والترابط والتآلف بين أفراد الأمة الإسلامية.

3- الحياء أساس التكافل:

إن الحياء [1]صفة اتصف بها الخالق قبل المخلوق، فعن سلمان الفارسي عن النبي (ص) أنه قال: « إن الله حيي كريم، يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين»[2]. ولقد كان النبي (ص) المثل الأعلى في الحياء، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي (ص) أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه»[3]؛ من ذلك أنه لما بنى بزينب بقي في بيته ثلاثة رهط، كانوا يسمرون، وهم يفعلون هذا والنبي (ص) يستحيي أن ينبههم إلى ثقلة مقامهم عنده حياء منه، ورغبة في ألا يواجه زواره بما يخجلهم[4]؛ فنزل قوله تعالى:(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) [5].

ذلك لأن الحياء من إيحاء الفطرة السليمة المستقيمة، ومن صفات النفس المحمودة «ولهذا قال تعالى عن ابنة شعيب: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)[6]. فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، فهي تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد»[7]؛ فالحياء إذن يبعث على فعل كل مليح، وترك كل قبيح، كونه رأس مكارم الأخلاق، وزينة الإيمان وشعار الإسلام، كما في الحديث: « إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء.»[8]، ولذلك قيل: «من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.»[9]، وصدق القائل:

وربَّ دنية ما حال بيني.. ... ..وبين ركوبها إلا الحياءُ[10]

---

[1] -يقول أبو زهرة: «الاستحياء انقباض النفس عن أن يكون منها ما يستقبحه الناس». زهرة التفاسير لأبي زهرة: 175/1.

[2] -أخرجه الترمذي في سننه: 5/ 556، كتاب: الدعوات عن رسول الله، رقم: 3556.

[3] - رواه البخاري في صحيحه: 5/ 2263، كتاب: الأدب، باب: من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم: 5751. ورواه مسلم في صحيحه: 4/ 1809، كتاب: الفضائل، باب: كثرة حيائه صلى الله عليه وسلم، رقم: 2320.

[4] - انظر: صحيح البخاري للبخاري: 4/ 1800، كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب، رقم: 4516.

[5] - سورة الأحزاب: الآية 53.

[6] - سورة القصص: الآية 25.

[7] -في ظلال القرآن لسيد قطب: 2687/5

[8] أخرجه ابن ماجه في سننه: 5/ 276، كتاب: الزهد، رقم: 4181.

[9] - شرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن هبة الله: 45/19.

[10] -انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس للقرطبي: 592/1.

وعن إياس بن معاوية بن قرة، قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز، فذكر عنده الحياء، فقيل: الحياء من الإيمان، فقال عمر: «بل هو الدين كله»[1].وعن ابن منبه، قال: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وماله الفقه، وزينته الحياء.»[2]

وهذا يعني أن الحياء:

1-قيد اجتماعي نفسي مَن انضبط به تحلى بباقي الأخلاق الفاضلة، وتخلى عن كل خلق قبيح، ومَن حرم الحياء انطلقت الغرائز الإنسانية معلنة شرها، لا يستتر فيها ما ينبغي استتاره؛ وانغمس فاقده في كل رذيلة، ومن ثم فإذا ما رأيت في الناس جرأةً وبذاءةً وفحشًا، فاعلم أن من أعظم أسبابه فقدان الحياء.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي.. ولم تستحِ فاصنع ما تشاءُ

فلا والله ما في العيش خيرٌ ....ولا الدّنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء مااستحيا بخير...ويبقى العود ما بقي اللحاءُ[3]

2-إذا ساد الحياء وانضبطت النفوس بضوابط من اللياقة الاجتماعية كان الانسجام الخلقي وعدم التنافر؛ وأنه بقدر ما يكون الحياء يكون المجتمع فاضلا، تختفي فيه الرذيلة؛ إذ الحياء يحمل المرء على ألا يظهر منه ما ينفر منه الذوق السليم.

هذا وفي مقابل ذلك فإن الحياء لا ينبغي أن يكون سببا باعثا على التخلي عن الأمر بالمعروف[4] والنهي عن المنكر، ومانعا من النصيحة والإرشاد، لأنه لا يأتي إلا بخير، وإلا عد تسترا وانسحابا من الحياة الاجتماعية. ولهذا لما استحيا رسول الله (ص) من أولئك الثلاثة من أن يبدي لهم عدم رضاه بسهرهم عنده، تكفل سبحانه وتعالى بإظهار ذلك بقوله: (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) [5]، أي لا يمتنع من بيان الحق وإظهاره؛ ولذلك لم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية رضي الله عنها من أن تسأل

---

[1] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 151/10، رقم الحديث: 7313

[2] - انظر: مصنف ابن أبي شيبة: 13/ 510

[3] -هذه الأبيات قيل هي لحبيب ابن أوس: انظر: بهجة المجالس وأنس المجالس للقرطبي: 591/1-592، وقيل هي لأبي تمام الطائي، انظر: مجمع الحكم والأمثال لأحمد قبش: ص129.

[4] -فإنه لا يعد ذلك حياء في الحقيقة بل خجلا، ولهذا فرق العلماء بين الحياء والخجل الحياء فضيلة والخجل ضعف النفس يجعل الإنسان يخجل أن يطالب بحقه، أو يدلي بكلمة حق.

[5] - سورة الأحزاب: الآية 53.

رسول الله (ص) بقولها: « يا رسول الله! إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة غسلٌ إذا احتلمت؟» فقال: «نعم، إذا رأت الماء»[1]؛ لم يمنعها الحياء من السؤال عن مسائل الدين وطلب العلم، ولم يمنع الحياءُ الرسول (ص) من البيان، بل ولم يمنعه حياؤه من قول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل والغضب لله إذا انتهكت محارمه.

خاتمة:

وما انتهيت إليه من خلال دراستي لمسائل هذا البحث النقاط التالية:

1-إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرَّد المساعدات المادية أيًّا كانت صورتها بل يمتدُّ مضمونه ليُصبح نظامًا لتربية روح الفرد وضميره وشخصيَّته وسلوكه لاجتماعي.

2-العقيدة في الإسلام تربي المسلم على الارتباط بالمجتمع وتربي وجدانه على المشاركة والاهتمام بالآخرين والقيام بحقوقهم.

3-التكافل المبني على العقيدة الإسلامية والتآخي بين المسلمين، يقتضي الموالاة بين المؤمنين والتعاون بينهم على البر والتناصح والنصرة في الحق.

4-إن التكافل الاجتماعي في ضوء التربية الإسلامية هو عملية تفاعلية بين أفراد المجتمع، ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الآخر ابتغاء رضوان الله.

5-إن المجتمع القوي المتماسك هو الذي يكون بين أفراده تعاون وتفاهم ومودة ورحمة، ويهيمن عليه الإخلاص والوفاء والعطاء.

6-إن رابطة الأخوة رابطة أصيلة في الإسلام في ظلها يصبح المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا، وقد طبقها الراعيل الأول فتغلبوا على كثير من المشكلات الاجتماعية، مما أسهم في تكوين كيان الأمة الإسلامية

7-إنه بغرس الحياء في نفوس المؤمنين تصبح القيم سائدة في المجتمع، فلا يتعدى على الآخرين ولا تنتهك حقوقهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1-ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني سنن ابن ماجة، مكتبة أبي المعاطي، كتب حواشيه: محمود خليل.

2-أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.

[1] - رواه البخاري في صحيحه: 1/ 60، كتاب: العلم، باب: الحياء في العلم، رقم: 130. ورواه مسلم في صحيحه: 1/ 251، كتاب: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة، رقم: 313.

3-أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة.
4-أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، تحقيق: أحمد بوطاهر الخطابي، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين الحكومة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1400هـ-1980م.
6-أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، (1423 هـ/ 2003 م).
7-أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري، القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن حميد، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.
8-أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
9-أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة :الأولى، 1422 هـ
10- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.
11-أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، دار الرشيد، الطبعة الثالثة،1405 هـ-1985م.
12-جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407 هـ، الكتاب مذيل بحاشية الإمام العلامة أحمد بن محمد، المعروف بابن المنير وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعى.
13- سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن،دار الشروق، القاهرة.
14- شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي الذخيرة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت، لبنان، 1994م.
15- شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد الباري عطية،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415 هـ
16-عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
17-عبد الرحمن أبو عامر عبد السلام، أضواء على النظام الاجتماعي في الإسلام، الرياض، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية.
18-عبد الرحمن بن محمد القماش، الحاوي في تفسير القرآن الكريم ويسمى جنة المشتاق في تفسير كلام الملك الخلاق، الطبعة الأولى، 2009 م.
19- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، (1420هـ -2000 م).
20-عبد الرحمان حسن الميداني الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار العلم، دمشق.
21- محمد أبو زهرة، التكافل الاجتماعي في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1991م.
22- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
23- محمد الأمين بن محمد المختار للشنقيطي، مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للعلامة ابن قدامة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
24-محمد بن أحمد الصالح، التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية، العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية.
25-محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، (1407هـ -1987م). مع الكتاب: تعليق د. مصطفى ديب البغا.

26-محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ -2000 م.

27-محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب -دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى -1414 هـ

28-محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

29-محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420هـ

30-محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (1420هـ-2000م).

محمود شلتوت،الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، الطبعة الثانية عشر، 1403هـ-1983م.

31-مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مع الكتاب: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

32-وزارةالأوقاف والشؤون الإسلامية الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، دار السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، 1427هـ